مفهوم النص في رحاب اللسانيات

د. إبراهيم عبد النور

جامعة بشار

ملخص البحث: يشكل"النص"مفهوما مركزيا في الدراسات اللسانية المعاصرة؛ حيث اختصت الدراسات التي تهتم بالنص باسم : علم النص، أو لسانيات النص، أو لسانيات الخطاب، أو نحو النص...وكلها تتفق حول ضرورة مجاوزة"الجملة" في التحليل البلاغي إلى فضاء أرحب وأوسع؛ إن علم النص أو لسانيات النص فرع جديدٌ في علوم اللسان وعلاقتها بالبحث الأدبي الذي استثمر كثيراً مما توصلت إليه اللسانيات، إن على مستوى منهجية البحث أو على مستوى النتائج علاقة واضحة، ويبدو ذلك جلياً في كثير من المفاهيم والمصطلحات اللسانية التي هيمنت على الدرس الأدبي وصرنا نقرأها في كتابات كثير من الدارسين للأدب أمثال: "ياكبسون" و"بنفينيست" و"باختين" و"بارت" و"كريستيفا"... والقائمة طويلة في هذا المجال. إن البحث في مثل هذه الموضوعات مهم جداً وليس من السهولة طرقه؛ لأنه يشكل وِرْداً تناصرت الهمم إليه وما تزال؛ فهو يجمع بين معارف عديدة وتخصصات يتضافر بعضها ببعض في تكوين الظاهرة النصية إن جاز التعبير، وبالرغم من اكتمال خصوصيات هذا العلم المميزة لـه عن العلوم الأخرى في بداية السبعينات التي تعد بدايته الحقيقية فإنه قد "استقى أكثر أسسه ومعارفه من علوم أخرى تتداخل معه تداخلاً شديداً؛ بحيث يمكن أن يشكل أدواته في حيرة تامة ثم تصب نتائج تحليلاته في هذه العلوم؛ فتزيدها ثراء وتكشف عن كثير من الغموض في مسائلها وقضاياها. وقد نتج عن هذا خصوصية أخرى مميزة لهذا العلم وهي صعوبة الاتفاق على مفاهيمه وتصوراته ومناهجه فصار الباحث يجد نفسه أمام كم هائل من المفاهيم والمصطلحات والتصورات النظرية التي يجهد نفسه لفهمها فيعجز أحياناً ويوفق أحياناً أخرى أو يبقى يراوح مكانه بين الشك واليقين؛ نظراً لكثرة منابع هذا العلم وتعدد المشارب المعرفية للباحثين فيه وعدم ارتباطه ببلد معين أو مدرسة محددة أو اتجاه بعينه.

ولهذا اتخذ البحث فيه أشكالاً عديدة تبعاً للأسس التي استند إليها علماء النص المختلفون؛ فمنهم من اعتمد على اللسانيات البنيوية بمختلف اتجاهاتها ومنهم من اتخذ اللسانيات الاجتماعية منطلقاً له. يستدعي منا البحث في هذا الموضوع محاولة تحديد بعض المفاهيم المفاتيح كما نراها مثل: مفهوم الجملة

والملفوظ والتلفظ والخطاب والنص ومحاولة تبيين الفروق بينها ومن خلالها محاولة رسم الحدود الفارقة بين لسانيات النص ونحو النص وعلم النص.

النص في اللغة : إذا عدنا إلى المعاجم العربية فإننا نجد لمادة (نصّ) عدّة معانٍ منها : نـص الحديث رَفَعَـه، وناقته استخرج أقصى ما عندها من السَّير، والشيء حرّكه، ومنه فلان ينصُّ أنفه غضباً، وهو نصَّاصُ المتاع : جعل بعضه فوق بعض وفلان استقصى مسألته عن الشيء، والعروسُ أقعدها على المنصة، وهي ما تُرفع عليه فانتصت، والشيء أظهره، والشِواء ينِصُّ نصيصا: صوَّت، والقِدر غلـت والنصُّ الإسناد إلى الرئيس الأكبر والتوقيف، والتعيين علـى الشيء، وإذا بلغ النساء نصَّ الحِقاق فالعصبة أولى، أي بلغنا الغاية التي عقلن فيها على الحِقاق وهو الخصام فقال كل من الأولياء أنا أحق، أو استعارة من حـقاق الإبل، أي انتهى صـغارهن، ونصَّـصَ غريمه وناصَّهُ استقصى عليه وناقشه، وانتصَّ انقبضَ وانتصبَ وارتفعَ، ونصْنَصَه حرَّكه وقلقله والبعير أثبت ركبتيه في الأرض وتحرّك للنهوض[1].

النص: الدليل، جاء في تاج العروس "نص الحديث نصا وكذا نص إليه إذا رفعه ونص ناقته ينصها نصا إذا استخرج أقصى ما عندها من السير"[2].

وكذا نص الفقهاء الذي هو بمعنى الدليل بضرب من المجاز كما يظهر عند التأمل. [3]

فالنص من هذا المنظور حجة ودليل، وهو حسب رأينا أثر من آثار الناص الدالة عليه، ومستودع أفكاره،ولعلّ أبرز ما نتبينه من خلال القراءة السريعة للمعاني المعجمية لمادة (نصّ) التي تعكس استخداما واسعا في حقول متعددة المعاني المحورية الآتية :

- الرفع : كقولنا نصَّ الحديث إليه، أي رفعه إليه، وقولنا انتصَّ، أي ارتفع وانتصب وانقبض.
- الحركة : كقولنا : نصَّ القدر، أي غلت.
- الإظهار : كقولنا : نصَّ العروس وضعها على المنصة.
- منتهى الشيء وغايته : كقولنا : ناصَّ غريمه، أي استقصى عليه وناقشه لإسناد : كقولنا : نصَّ القول إلى صاحبه، أي أسنده إليه.

والنص هو اللفظ الدال على معنى لا يحتمل غيره، ومنه قول الفقهاء كما جاء في لسان العرب: "نص القرآن، ونص السنة أي ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام. "[4]

والنص: التعبير، جاء في معاجم المصطلحات العلمية والفنية مادة نصص: نص: عبر (مقابل énoncer الفرنسية-toenuciate – النص: التعبير: البيان enonce = enunciation).

فالنص تعبير، وبيان، والتعبير، والعبور هو الانتقال، والتحول من حالة

الإضمار إلى حالة البوح، والكشف، والتعبير يكون بأساليب متنوعة (بالجسم كله-باليد -بالعين-بالوجه-بالكتابة بالصوت..)، والبيان من أبان، يبين وهو بمعنى الظهور، أي الانتقال من حالة الستر إلى حالة الفضيحة، ومن السر إلى العلن. والنص كما رأينا في المعاجم العربية القديمة لا يخرج معناه في أغلب الحالات عن أحد هذه المعاني."والمناهج اللغوية الحديثة، فعند صلاح رزق"هي التي تعول على علم اللغة وإنجازاته الحديثة في تحليل العمل الأدبي، وتبدو أقرب إلى الاتجاهات الموضوعية من حيث تركيزها على النص ذاته، والإيمان باستقلاليته " [5]

هذا التعريف نراه قد استلهم مفهوم الجاحظ للبيان، ذلك أن البيان عند الجاحظ هو(كل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر، والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان.)[6]، فالنص/البيان عند الجاحظ هو أسلوب، و طريقة من الطرق التي يتوصل بواسطتها المتلقي إلى كشف قناع المعنى المتواري خلف قناع الذات الباثة للخطاب أو الرامزة له.

والنص(texte) في بعض المعاجم الغربية الحديثة يعود مفهومه إلى الأصل اللاتيني القديم Lat..textus de texere-tisser ويعني نسج ينسج -النسيج.[7]

فنحن إذن أمام نساج(الناص)-ومنسوج(النص)-ومادة النسج (اللغة) فالنسيج/ النص في هذه الحالة يحتاج إلى توفر براعة وفن في النساج (الناص) فن لإثبات مقدرته على اختيار المادة (اللغة) المناسبة لكل قطعة ينسجها.

والنسيج معناه الظهور على هيئة ما، وشكل ما، بحيث يكون بارزا، وقابلا للإدراك.

أولا : مفهوم النص في الدراسات العربية :

من المسلم به أن لا يتفق الباحثون على تعريف مفهوم كبير للنص، شأن ما ألفيناهم يأتون من المفاهيم الكبرى كالفلسفة والثقافة وغيرها، فيظل تحديد مفهوم النص مختلفا حينا ومتناقضا حينا آخر بين المحللين ومنظري الأدب .

1- مفهوم النص عند عبد المالك مرتاض : لا يحدد مرتاض مفهوم النص من خلال الابداع أو الكتابة، ولكن من خلال ما سماه "الحركة المركبة"- كتابة كأنها حركة كلمات، قال : "وليس النص من منظرين، هو الإبداع، كما أنه ليس الكتابة هي الحركة المادية المصطحبة بالتفكير والتخيل، بينما النص يكون ثمرة من ثمرات هذه الحركة المركبة وكأنه الحال المادية والتخيلية التي تكون بين تفريغ النص، أوج هذا التفريغ الذي هو أوج الإبداع الذي يمثل نصا كاملا منقحا، وربما تكون الحال هي ما يطلق عليها في اللغة السيمائية المعاصرة التمدلل signifiance .." [8]

أما النص من حيث دلالته؛ فهو شبكة معطيات؛ ألسنية وبنيوية وأيديولوجية كلُّها تسهم في إخراج النص إلى حيّز الفعل والتأثير؛ ومن هنا يستند الأستاذ مرتاض على نظرية القراءة في تحديد مفهوم النص الأدبي، "فالنص قائم على التجددية بحكم مقروئيته، وقائم على التعددية بحكم خصوصية عطائيته تبعا لكل حالة يتعرض لها في مجهر القراءة، فالنص من حيث هو ذو قابلية للعطاء المتجدد المتعدد بتعدد تعرضه للقراءة، ولعلّ هذا ما تطلق عليه جوليا كريستيفا (إنتاجية النص) Productivité du texte، حيث إنه يتخذ من اللغة مجالا للنشاط فتراه يتردد؟ إلى ما يسبق هذه اللغة محدثا بعدا بين لغة الاستعمال اليومية-وهي اللغة المسخرة لتقديم الأشياء والتفاهم بين الناس-والحجم الشاعر للفعاليات الدالية؛ فتنشط اللغة التي هي الأصل الأدبي في كل مرحلة لنشاط هذه اللغة التي هي أصل النص في كل مراحله ومظاهره،"نحن نعرف النص على أنه جهاز للنقل اللساني الذي يعيد توزيع نظام اللسان بوضعه الكامة المبلغة في حالة علاقة، قاصدا المعلومة المباشرة في علاقتها مع مختلف الملفوظات السابقة والمتزامنة. "[9]

2 ـ مفهوم النص عند نور الدين السد : ينطلق السد من رؤية لسانية؛ لا تعتمد تقسيم الخطاب إلى خطاب نفعي وآخر فني بل صنّف النص تصنيفا نوعيا، وبذلك أصبح"النص الأدبي"، لا يمثل إلاّ أحد الأنواع النصية العديدة؛ والتي منها النص الديني، والنص القضائي، والنص السياسي، والنص الإشهاري إلخ[10].

إنّ الترابط بين أجزاء النص هو أبرز الخصائص التي تسمه-بالنصية (texture)، فالنص ليس"مجموعة جمل فقط، لأنّ النص يمكن أن يكون منطوقا أو مكتوبا، نثرا أو شعرا، حوارا أو منولوغا، يمكن أن يكون أي شيء من مثل واحد حتى مسرحية بأكملها، من نداء استغاثة حتى مجموع المناقشة الحاصلة طوال يوم في لقاء هيئة، والنصية تميز النص عمّا ليس نصا، فالنصية تحقق للنص وحدته الشاملة، ولكي تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، بحيث تسهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة، ولتوضيح ذلك نضرب المثل الآتي: (اقطف قليلا من الزهور، ضعها في مزهرية قاعة الاستقبال)، غني عن البيان أن الضمير(ها) في الجملة الثانية، يحيل قبليا إلى(الزهور) في الجملة الأولى، وما جعل الجملتين متسقتين هو وظيفة الإحالة القبلية للضمير(ها)، وبناء على ذلك فإنّ الجملتين تشكلان نصا" [11].

3 ـ مفهوم النص عند إبراهيم الفقي : في دراسته للتماسك النصي، يتبنى الفقي تعريف (روبرت آلان دي بيوجراند)؛ الذي يرى أن النص؛ حدث تواصلي يلزم لكونه نصا أن تتوافر فيه سبعة معايير إذا تخلف واحد منها تنتزع منه صفة النصية، وهذه المعايير هي :

- السبك أو الربط النحوي (cohesion).

- الحبك (coherence) أو التماسك الدلالي، وترجمها تمام حسان؛ بالالتحام.
- القصد (Intentionality)؛ وهو الهدف من إنشاء النص.
- القبول والمقبولية (Acceptability) وتتعلق بموقف المتلقي من النص من حيث قبوله أو رفضه.
- الإخبارية أو الإعلام (Informativity) وتتعلق بأفق انتظار المتلقي وتوقعه للمعلومات الواردة في النص.
- المقامية (Situationality) وتتعلق بمناسبة النص للموقف والظروف المحيطة به.
- التناص (Intertextuality)[12] والذي نراه أن التعريف الذي يتبناه الفقي تعريف شامل لا يلغي أحد أطراف الحدث الكلامي في التحليل؛ فهو يجمع المرسل والمتلقي والسياق وأدوات الربط اللغوية... ومن هنا فإنّ المدخل السليم للتحليل النصي هو التحليل ذو الرؤية الشاملة حيث كل العناصر النصية-المرسل، المتلقي السياق، عناصر الربط اللغوي...-تحت مجهر التحليل النصي، ولا يضخم نظرته لعنصر على حساب آخر؛ كما تضخم البنيوية بنية النص على التاريخ، والقارئ فيها مجرد متلق سلبي لا حول له ولا قوة أمام رياضيات النص، وكما تضخم التفكيكية القارئ على النص والتاريخ واللغة نفسها...

لقد حاول خليل الموسى الجمع بين الدلالة المعجمية لكلمة"نص" في العربية والفرنسية والإنجليزية، مع اعترافه بوجود فوارق دلالية بين تلك المعاجم، ناتجة عن التداول اللساني الذي يعكس نمطا حضاريا من الاستخدام اللغوي، يقول : "لاشك في أن معاني (نص) في القديم غيرها في الحديث، وعند العرب غيرها عند سواهم وهذا أمر طبيعي تقتضيه التطورات والتغيرات الزمنية والمكانية، التي تطرأ على معاني الألفاظ وسواها، ولكنّ بعض هذه المعاني، وبخاصة الثوابت منها، تتقاطع وتتلاقى؛ فالرفع مثلا يعيد النص إلى صاحبه، والتحريك صفة من أهم صفات النص الأدبي، فهو حوار بالدلالة، أما الإظهار ففيه معنى الإنجاز والتمام، وإذا كانت العروس تُنَصُّ على المنصة لتُرى في أجمل حُلّة وصورة لها، فكذلك شأن النص الذي لا يخرجه صاحبه إلى الناس إلاّ في حالته التي يراها جميلة، ومن هنا كان معنى الحوليات في الشعر الجاهلي، ثمّ إنّ من معاني النص الافتضاح والإشهار، ومنها قولهم : وُضع فلان على المنصة، أي افتضح واشتهر، ومن ذلك التحديد والوصول إلى الغاية والوصول إلى الغاية والمنتهى في الجودة والبلاغة" [13]

وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى تحديد المعنى الأصلي لكلمة"النص" في أعظم علم أنتجته العقلية العربية الإسلامية هو"علم أصول الفقه"، حيث نجد

تطبيقات نصية مبكّرة وراقية تجاوزت إطار التحليل على مستوى الجملة...فقد وردت الكلمة في اصطلاح الأصوليين بمعان مختلفة تعكس مستويات دلالية متفاوتة تحددها درجة الظهور أو الخفاء في النص، ونجمل تلك المعاني في الآتي[14] :

1. عبارة النص: ويطلق على المعنى الحرفي للنص، أي المعنى الذي يتبادر من خلال الصيغ التي تُكوّن مفردات النص وجمله، فهو المعنى الظاهري الذي يبرز سطحيا في النص.

2. إشارة النص : وهو المعنى الذي لا يتبادر فهمه من ألفاظه، ولا يقصد من سياقه ولكنه معنى لازم للمعنى المتبادر من مقصود السياق.

3. دلالة النص : وهو ما يفهم من روح النص ومعقوله.

4. اقتضاء النص : وهو المعنى الذي لا يستقيم الكلام إلاّ بتقديره.

وهكذا نرى أنّ كلمة"نص" في التعريف الفرنسي أقرب في الدلالة على مفهوم التماسك النصي؛ فهي تدل على الترابط بين أجزاء الحكاية، كما أنّ كلمة النسيج-المقابل المعجمي لمادة نص-في أبسط معانيها تدل على الانسجام والتماسك والترابط والتناسق بين خيوط المنسوج؛ ذلك المنسوج الذي يُشكِّل قيمة فنية ترتفع جمالياتها كلما ازداد تماسك خيوطها.

فالنص الأدبي إذن عملية تفريغ واستخراج لأقصى ما عند الناص من معان وإفراغها في قالب جمالي يأخذ شكلا من أشكال التعابير الأدبية المختلفة، ومن المجاز نص فلان نصا إذا استسقى مسألته عن الشيء، أي أخفاه فيها، ورفعه إلى حد ما عنده من العلم كما في الأساس وفي التهذيب والصحاح حتى استخرج كل ما عنده" [15] والأديب البارع يصطنع لغة تعلو على لغة الخطاب العادي وتنخرط في مجازات اللغة، يجتهد الأديب في تعمية المعاني، ولا يجعلها تطفو فوق السطح، بل يتنزل بها إلى قاع النص ليستدرج القاريء إلى بذل جهد إضافي لاكتشاف طبقات النص الدلالية.

فالنص من منظورنا يشكل طبقات من المعاني يكسو بعضها بعضا، والقراء يشكلون طبقات من الغواصين المولعين بصيد المعاني، فمنهم من يقف عند الطبقة الأولى من النص، يكد، يتعب حتى ينفد زاده ولا يتعداها، ومن القراء – وهم قلة- ممن يتعدى الطبقة الأولى، ويخترقها إلى طبقات أكثر عمقا، وخصوبة طبقة أو طبقات لم يطلها التنقيب من قبل، أو لم يحسن ممن بلغوها الحفر والكشف، فظلت روضة أنفا، فيظفر ببعض الدرر المخبوءة، وينتزع بعضا. نصص النص، رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصا، رفعه، وكل ما أظهر فقد نص. ووضع على المنصة أي على غاية الفضيحة والشهرة، والظهور وكل شيء أظهرته فقد نصصته. [16]

فالنص إذن إظهار وافتضاح، وكشف للمستور إنه انتقال من حالة الإضمار

والكتمان، إلى حالة البوح والتصريح، والنص قبل الكتابة أو الإنشاد يكون سرا لا يعرفه إلا الناص، لكن بمجرد أن يخرج النص إلى الوجود، ويسمى (قصة، شعرا، رواية...) يفتقد صاحبه صفة التفرد بمعرفة السر.

والنص إذ ينفصل عن صاحبه يصبح في غاية الفضيحة والظهور والشهرة ويتخذ له موقعا (منصة) ما بين النصوص الأخرى التي من جنسه ليرى، أو ليسمع أو يتلمس بأصابع اليد. "والنص التعيين على شيء ما، وكل ذلك مجاز من النص بمعنى الرفع والظهور". [17]

ثانيا: النص في الدراسات الغربية :

أما النص في المعجم الفرنسي(texte) فهو مأخوذ من مادة (textus) اللاتينية التي تعني النسيج،كما تطلق كلمة(texte) على الكتاب المقدس أو كتاب القداس... كما تعني مند العصر الإمبراطوري ترابط حكاية أو نص...والنص منظومة عناصر من اللغة أو العلاقات، وهي تشكل مادة مكتوبة أو إنتاجا شفهيا أو كتابيا، والذي نلاحظه في المعنى اللغوي لمادة(texte) أنها تدل دلالة صريحة على التماسك والترابط والتلاحم بين أجزاء النص وذلك من خلال معنى كلمة"النسيج" التي تؤشر إلى الانسجام والتضام والتماسك بين مكونات الشيء المنسوج ماديا كما تؤشر معنويا أيضا إلى علاقات الترابط والتماسك من خلال حبك أجزاء الحكاية.

فالنص من هذا المنظور هو الخطاب المحقق بفعل الكتابة، والكتابة تصبح في الحالة هذه تعيين وإظهار وافتضاح للمستور في الصدور، إنها لحظة الإعلان عن ميلاد النص، والاعتراف باستقلاليته عن صاحبه ووضعه على منصة القراءة.

1- مفهوم النص عند رولان بارث: يذهب رولان بارث في تعريفه للنص إلى القول "ليس النص في نهاية الأمر إلا جسما مدركا بالحاسة البصرية" [18] والنص بحكم ماديته وشكليته خطوط وحروف وألوان مرسومة أو مكتوبة أو مرقومة على صفحة قرطاس ،وفضائيته امتداد النص على وجه ورق يدرك بالحاسة البصرية قبل أن يدرك بجهاز العقل المحلل، والجسم كي يدرك لابد أن يوضع على المنصة (منصة الكتابة) أي يصبح في غاية الفضيحة والشهرة كما رأينا عند ابن منظور.

فالنص جسد يرى بصريا حسب رولان بارت، أو يتلمس عند فاقدي البصر وتفك شفراته وفق منظومة "برايل"، وهو يربط النص بفعل الكتابة (فالنص يشاطر الأثر الأدبي هالته الروحية وهو مرتبط تشكيلا بالكتابة (النص المكتوب)، ربما لأن مجرد رسم الحروف، ولو أنه يبقى تخطيطا، فهو إيحاء بالكلام، وبتشابك النسج (اشتقاقيا نص يعني نسيجا).[19]

فالكتابة تشكل، ونسج، ورسم لجسد النص، فهي تعطيه هيئته، وصورته

الأولى المعلنة التي يعرف بها كنسيج متشابك من الكلمات، والمعاني (إنه السطح الظاهري للنتاج الأدبي، نسج الكلمات المنظومة في التأليف، والمنسقة بحيث تفرض شكلا ثابتا ووحيدا ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.) [20]. فالنص حسب بارت سطح ظاهري، ونظم منسق، وشكل ثابت بمعنى إننا نتلقاه في درجة الصفر للقراءة (degré zéro de lecture) أي مرحلة الإدراك البصري.

وإذ ينتقل النص من مرحلة سكون الكتابة إلى مغامرة القراءة الإبداعية المنتجة (lecture productive) يتحرك النص، يتحرر من جموده، وثباته، ويدخل في حياة جديدة، وهو ما يمكن تسميته بالقراءة فوق درجة الصفر، أي القراءة التي تنتج نصها، وخطابها الخاصين، فيظل النص يتمنع، يراوغ، يغلق منافذه، يغلف معانيه بحجب كثيفة من الستر، يتجلى، ويتوارى حسب درجة استفزاز القارئ له وقدرته على إثارة بواطنه، واستدراجه للبوح بما أستودع فيه من أسرار المعاني وإخراجه من حالة السكون التي تفرضها طبيعة الكتابة، أي تجاوز عملية الإدراك البصري إلى عملية التأويل، وإنتاج المعاني.

2 ـ مفهوم النص عند تودوروف : في مؤلفه "القاموس الموسوعي لعلوم اللغة" يرى تودوروف أن اللسانيات تبدأ بحثها بدراسة(الجملة)... ولكن مفهوم(النص) لا يقف على نفس المستوى الذي يقف عليه مفهوم (الجملة) أو التركيب، وكذلك هو متميز عن الفقرة التي هي وحدة منظمة من عدة جمل، ويرى تودوروف أيضا أن النص يمكن أن يكون جملة، كما يمكن أن يكون كتابا بكامله، وعليه يحدد النص أساس استقلاليته وانغلاقيته؛ فهو يؤلف نظاما خاصا به، لا يجوز تسويته مع النظام الذي يتم على أساسه تركيب الجمل.

ومستويات تحليل النص عند تدوروف هي :

1. المستوى اللفظي : وهو مؤلف من العناصر الصوتية؛ التي تؤلف جمل النص.

2. المستوى التركيبي: ويركز على العلاقات بين الوحدات النصية الصغيرة؛ أي الجمل ومجموعات الجمل.

3. المستوى الدلالي: وهو نتاج مُعَقّد توحي به المستويات جميعها، منفردة ومتشابكة [21].

فالنص عند بارث نسيج كلمات منسقة في تأليف معين، بحيث يفرض شكلا وحيدا وثابتا قدر المستطاع، والنص من حيث هو نسيج فهو مرتبط بالكتابة، لأنه رسم بالحروف؛ وللنص هالته الروحية كذلك من حيث وحي كلماته.

والكتابة هي السمة الأساسية للنص عند بارث؛ فالكتابة ضمانة للشيء المكتوب، وصيانة له؛ وذلك باكتسابه صفة"الاستمرارية"، فالنص من هنا سلاح في وجه الزمان، والنسيان...يقرر بارث في الأخير منظوره للنص في جانبه الشكلي العام؛ إنه نسيج كلمات منسقة.[22].

3 ـ مفهوم النص عند كريستيفا : النص لدى جوليا كريستيفا (Julia kristeva)
هو الذي يحقق غايات معرفية تقول "نحن نعرف النص على إنه جهازللنقل اللسانياتي الذي يعيد توزيع نظام اللسان بوضعه الكلمة المبلغة في حالة علاقة، قاصدا المعلومة المباشرة في علاقاتها مع مختلف الملفوظات السابقة ،والمتزامنة". [23]

أو هو جهاز لساني يعيد توزيع نظام اللسان بالربط بين كلام تواصلي يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو المتزامنة معه فالنص إذن، إنتاجية" [24]. وتنطلق كريستيفا من مفهوم التناص في تحديد مفهوم"النص"؛ فالنص"ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى." [25]

إنّ النص فضاء ثري يختزن طاقات ومعارف كبيرة ومتنوعة ومتشابكة "فالنص الأدبي خطاب يخترق حاليا وجه العلم والأيديولوجيا والسياسة، ويتنطع لمواجهتها، وفتحها وإعادة صهرها". [26]، وفي رأي عبد الملك مرتاض: "فإن تعريف كريستيفا تعريف سيمائي .فيه ميكانيكية علمية وفيه شيء من صرامة التنظير لكنه من منظورنا لا يعني شيئا كثيرا مادام يلغي ضمنيا الإنسان الكاتب الذي هو وحده المتحكم في الحقيقة في هذا الجهاز وهو الباث لمكانزماته، وهو الصانع الحق لبنائه". [27]

ثالثا : لسانيات النص "Linguistique Textuelle – " **:**

إن الإرهاصات الأولى في انطلاقة لسانيات النص السردي ظهرت في جهود العلماء من أجل استكشاف الخصائص الصوتية والتركيبية والدلالية، للولوج في البنية العميقة للنص القديم، والتي اتخذت من اللغة وسيلة لمعرفة البنية الفكرية والاجتماعية والحضارية،"والتي تنعت "الفيولوجيا" fhilogie التي تتميز بصفة القدم لأنها تتعامل مع النصوص القديمة فتتخذ اللغة وسيلة لا غاية في ذاتها ،إذ أن هدفها هو شرح النصوص القديمة وتفسير محتواها لمعرفة قضايا أخرى خارجة عن بنية اللغة المعنية". [28]

وهكذا تأسست الدراسات اللسانية على مفهوم الجملة الذي يتميز بالتنوع والاختلاف حتى إن تعريفات عديدة جداً توجد للجملة، من ذلك ما ورد عند العلماء العرب:"الجملة هي موضوع الدرس النحوي، وهي أقل قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلاً بنفسه سواء تركب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر".معنى هذا أن الجملة وحدة لغوية أقل من الكلام بغرض إفادة السامع معنى من المعاني يوجد فيها ويميزها عن غيرها من الجمل الأخرى، على أنه يوجد من يسوي بين الجملة والكلام كما فعل عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ): "واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرت أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعض". [29]

لكن لابد من الإشارة إلى أن الزمخشري سبق أن رأى أن الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها بشرط الإفادة في الكلام "اعلم أن الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها، ويبين مراتبها، ويكشف عن صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويدل على سرائرها ويبرز مكنون ضمائرها وبه أبان الله تعالى الإنسان على سائر الحيوان". [30]، وإذا ما عدنا إلى قبل نجد شيخ العربية سيبويه (ت 180هـ). لم يستعمل مصطلح جملة في الكتاب، يقول الدكتور: عبد الرحمن الحاج صالح "فهذا أمر غريب آخر ألا يوجد أي أثر للكلمة (جملة) في كتاب سيبويه وكذلك العبارة (جملة مفيدة) لا أثر لها في الكتاب. ولا نعثر على كلمة "جملة" بعد سيبويه إلا في كتاب المقتضب للمبرد ونرجح أن شيخه المازني هو الذي وضع المصطلح فإنه هو أول نحوي يستعمل كلمة "فائدة" بمعنى العلم المستفاد من الكلام وهذا المفهوم يعبر عنه سيبويه بكلمة "علم".[31] إن سيبويه يسمى الجملة "كلاماً" يحسن أن يسكت المتكلم عند انتهائه، لاستقلاله من حيث اللفظ والمعنى،"يقول" ما يستغني عنه السكوت ومالا يستغني ألا ترى أن "كان" تعمل عمل "ضرب" ولو قلت عمل ضرب ولو قلت كان عبد الله لم يكن كلاما ولو قلت ضرب عبد الله كان كلاما ". [32]

وتتأسس نظرته على التمييز الحاسم بين النظرة إلى الكلام كخطاب، أي باعتباره حدثاً إعلامياً يحصل في زمان ومكان معينين، والنظرة إليه كبنية، إن الكلام المستغني أو الجملة المفيدة هو أقل ما يكون عليه الخطاب إذا لم يحصل فيه حذف، ويمكن أن يحلل إلى مكونات ووحدات وعناصر خطابية لكل منها وظيفة دلالية وإفادية كما فعل سيبويه في القرن الثاني للهجرة ويفعله علماء اللسان في وقتنا.

إننا إذا دققنا النظر في آراء سيبويه العديدة ومنها رأيه هذا في الجملة والكلام لوجدناه يكاد يتشابه مع الدراسات الحالية المهتمة بتحليل الخطاب ونحو النصوص وعليه فإن الكتاب في حقيقة الأمر ليس كتاباً في النحو والصرف والإعراب بالمعنى التقليدي؛ وإنما هو كتاب في التحليل اللغوي لعلوم العربية التي درسها سيبويه، ويتشابه مع درس البنية والنظام عند سوسير: F.DE SAUSSURE إذ تشتمل نظرية سوسير على مجموعة من المبادئ والاعتبارات العامة استخرجها من مشاهداته وتحليلاته لظاهرة التخاطب اللغوي وأداته التي هي اللسان وتتمثل آراء سوسير بصفة عامة في:

ـ كيفية تحديده للعلاقة القائمة بين الدال والمدلول في الأذهان وفي الأعيان وبنائه بذلك نظرية للدليل اللغوي LINGUISTIQUE THEORIE DU SIGNE -. تمييزه الصريح بين اللسان LANGUE كوضع تصطلح عليه الجماعة ويشترك في استعماله جميع أفرادها وبين الكلام PAROLE كتأدية فردية للسان.

ـ تحديده بناء على هذا لموضوع اللسانيات باللسان لا الكلام في ذاته من تأدية كل فرد لـه ومن كيفية استعمال مجموع الأفراد له.

ـ توضيحه لمعنى الارتباط في قول العلماء: إن اللسان نظام SYSTEME ترتبط فيه جميع أجزائه بعضها ببعض.

ـ تمييزه الفاصل بين نوعين من الدراسة: الزمانية DIACHRONIQUE والآنية[33] SYNCHRONIQUE. لقد رأى سوسير أن بإمكان اللغوي وصف اللغة وصفاً آنياً دقيقاً ويستند هذا على تحديد المادة اللغوية التي هي في مظهرها نظام منغلق لا علاقة لـه بما هو خارج عنه، وهو الأساس الذي قامت عليه البنيوية بأسرها. فاللغة عند سوسير نظام من الرموز بل إنها عدة أنظمة داخلية متشابكة يجمعها نظام كلي واحد يتسم بالتماسك والوحدة والمنطقية. ونشير هنا إلى أن فكرة اعتبار اللغة شكلاً وليس جوهراً لا تعني الفصل بين الشكل والمعنى كما قد يفهم؛ إنما المقصود تأجيل دور المعنى في التحليل اللغوي حتى يمكن إخضاع النتائج للتجريب ويتعلق ذلك بالمستويات الصوتية والصرفية والنحوية، أما إذا تعلق الأمر بالمستوى الدلالي فتختلف طريقة البحث باختلاف المداخل إليه؛ وذهب سوسير إلى أن الوحدات اللغوية التي تتحدد بالنظر إلى علاقاتها بغيرها من الوحدات الأخرى، فالوحدة اللغوية لا تتحدد بناء على جوهرها بل على الوظيفة التي تؤديها داخل النظام.

وما أشار إليه عبد السلام المسدي: "إن جزم سوسير بأن اللغة كامنة في ذاتها أكثر مما هي كائنة في تاريخها يعد إعلانا عن قطيعة معرفية سوف يتجاوز حدود العلوم اللغوية إلى مجال العلوم الإنسانية الأخرى كيف لا ومنذئذ ستكف اللسانيات عن أن تكون تابعة للمعارف البشرية الموازية لها تدريجيا متبوعة بها،حاملة للريادة المنهجية والأصولية"[34] لقد أقصى سوسير الكلام من دائرة اهتمام اللسانيين وأخرجه من منهج دراسته وركز بذلك على اللسان كوضع لا كاستعمال. إن مفاهيم سوسير ضرورية جداً من الناحية المنهجية لتشخيص الوحدات اللغوية ووصفها وتحديدها وتصنيفها وبيان طريقة اندراجها في نظامها إلا أن الباحث لا يمكن أن يتعدى بها هذا المستوى من الدراسة إلى تعليل تركيباتها في مدرج الخطاب؛ فكما يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح:" لقد أثبتت اللسانيات الحديثة عددا من الحقائق صار الكثير منها اليوم من المسلمات التي لا تجادل، فدخلت بذلك حيز البديهيات، واكتسبت أهميتها لا من أجل صحتها فحسب، بل لكثرة ما تفرع عليها من مبادئ جزئية أفاد منها الباحثون في شتى الميادين مما له علاقة بظواهر اللسان والتبليغ، سواء كان في المستوى النظري أم التطبيقي " [35]

إن النظرية اللسانية تقوم بتحليل اللغة باعتبارها مجموعة من الجمل كل جملة تشتمل على شكل صوتي وعلى تفسير دلالي، وقواعد اللغة هي التي تفصل

التوافق بين الصوت والدلالة في الجملة ولذلك تسمى قواعد الجملة باعتبارها الوحدة الأساسية في التحليل اللساني التي توقفت عندها اللسانيات البنيوية ولم تتجاوزها إلى وحدات لغوية أكثر منها ولذلك سميت لسانيات الجملة. أما هاريس HARIS فيعد أول عالم لساني سعى إلى الانتقال من تحليل الجملة إلى تحليل الخطاب في كتاب بعنوان تحليل الخطاب، فهو كما يقول اللسانيون ـ أول من استعمل هذا المصطلح، وقد اتصف مذهبه بالاعتقاد؛ إن وصف اللغة هو وصف لموضع الألفاظ في الكلام. وإذا كان هذا مهماً في الدراسة النحوية فإنه ليس بالأهم بالنسبة لتحليل النصوص، لأن النص نسق من الجمل وليس للجمل مواضع مثل المواضع التي تقع فيها المفردات، كالجملة في النحو التوليدي التحويلي، ورائد هذا المذهب اللساني الأمريكي تشومسكي الذي رأى المناهج البنوية السابقة لـه منذ سوسير بالنسبة لأوربا. وبلومفيلد بالنسبة لأمريكا، مناهج وصفية بنيت على مقاييس دقيقة من أجل وصف آليات اللسان وصفاً علمياً دقيقاً وتعد من هذا الجانب قد حققت نتائج مقبولة مقارنة بالنحو التقليدي الذي كان يعتمد على المنطق الأرسطي وقد أفاد كثيراً من الفروع العلمية الأخرى مثل تعليم اللغات ومعالجة أمراض الكلام. غير أن هذه المناهج في رأي تشومسكي لم تعط التفسير أهمية والتعليل؛ فلم تفسر كيفية إدراك الكلام وإحداثه ولذلك فهي من هذه الناحية، فاشلة في نظره وبخاصة في دراستها للمستوى التركيبي الذي اهتمت فيه بالجزئيات ولذلك دعا إلى مناهج جديدة لتحليل المستوى التركيبي خاصة، واستطاع بذلك أن يحول المنهج اللساني من السلوكية إلى الذهنية أو أن يجعل الهدف من النظرية اللسانية التفسير والتحليل أكثر من الوصف والتقرير. وأن يؤسس الأسلوب الاستنتاجي التجريبي.

لقد ركز تشومسكي على ما يمكن أن يفعله المتكلمون باللغة لا على ما يقولونه، وإن الشيء المدهش والعجيب في نظره هو أن اللغة أداة خلق غير متناه؛ لأن التحليل اللغوي ينبغي أن يكون وصفاً لما تم قوله؛ وإنما هو شرح وتحليل للعمليات الذهنية التي تمكن الإنسان من التكلم بجمل جديدة لم تطرق سمعه قط، وأثرى البحث اللساني بمصطلحات ومفاهيم جديدة مثل: الإبداعية CREATIVITE والبنية السطحية STRUCTURE DE SURFACE والبنية العميقة STRUCTURE PROFONDE والملكة والإنجاز COMPETENCE ET PERFORMANCE وهي مفاهيم كان لها بالغ الأثر في الدراسات اللسانية فيما بعد.

وخلاصة الحديث أن العلماء الذين اهتموا بلسانيات الجملة قد أبعدوا العوامل الاجتماعية والتبليغية واهتموا ـ في المقابل ـ بالوصف من دون النظر إلى السياق اللغوي في علاقته بأحوال النص ومقتضيات التبليغ اللغوي وملابساتها المختلفة ليس لأنهم غير وعاة به وإنما لأنهم رأوه من الناحية المنهجية لا يدخل

في ما تقتضيه دراساتهم وأبحاثهم في تحليل اللغة، وبذلك بقي كثير من الإشكالات مطروحة على بساط البحث؛ فنجد العديد من اللسانيين إلى يومنا هذا لا يزالون يصرون على ضرورة الوقوف عند حد الجملة كوحدة كبرى قابلة للتحليل، وعدم تخطيها إلى وحدات أخرى أكبر منها وإلا عد ذلك ليس من صميم الدراسة اللسانية، ونجد دارسين آخرين يؤكدون على حتمية تعدي الجملة إلى وحدات لغوية أكبر منها قابلة للتحليل لما في ذلك من فائدة تعود بالضرورة على تحليل الجملة ذاته، وبناء على ذلك أدخلوا مصطلحات ومفاهيم جديدة غير الجملة، مثل: الملفوظ ENONCEE والتلفظ ENONCIATION والخطاب DISCOURS والنص TEXTE وتدل هذه المصطلحات على قيام لسانيات جديدة تختلف عن لسانيات الجملة لها مفاهيمها الخاصة ورؤاها المتميزة في التحليل. فإذا كان التركيز قد انصب على اللغة في جانبها الوصفي؛ ما أدى إلى الاهتمام بدراسة اللسان فإنه يجب ألا ننسى أن اللسان يؤدي وظيفة تبليغية تتحقق باستعمال الأفراد لـه في الواقع الاجتماعي لقضاء حاجاتهم والتعبير عن أغراضهم ومقاصدهم، ما لزم إعادة الاعتبار لدراسة الظواهر الكلامية التي كانت مبعدة من الدراسة منذ سوسير لأنهم عدوها خارجة عن موضوع اللسانيات.

فاللغة ظاهرة إنسانية يلتقي فيها الفكر والثقافة بالعقل، وهي وسيلة هذا اللقاء والتفاعل بين المتكلمين ما يدعو - على رأي بنفينست E.BENVENISTE إلى لزوم قيام لسانيات جديدة تتأسس على اللغة والثقافة والشخصية.

وأما بيرس فتجاوز الحدود التي وضعها سوسير بل ذهب إلى أبعد من ذلك؛ ففي رأيه أن الكلمة أو الدليل الذي يستعمله الإنسان هو الإنسان نفسه... والإنسان باعتباره كينونة لغوية لـه فكر فهو دليل لغوي أيضاً. ويمكن الإشارة إلى أن بيرس لم يشتهر في بداية حياته بالرغم من كونه معاصراً لسوسير؛ فقد ولد 1839 وتوفي عام 1914؛ ولعل ذلك راجع إلى كون اهتماماته الأساسية لم تنصب على اللغة بشكل مباشر، وقد أعاب ديل هايمس HYMES DELL على البنويين اهتمامهم الكبير باللغة كبناء مجرد ومنفصل عن كل العناصر النفسية والاجتماعية، وعلى الرغم من كون تشومسكي - في رأي هايمس - قد تحدث عن البنية السطحية والبنية العميقة والملكة اللسانية والإنجاز فإن ذلك غير كاف، فتجاوزه إلى الحديث عن الملكة التبليغية (التواصلية) LA COMPETENCE DE COMMUNICATION وهي من أهم المصطلحات المميزة لما يسمى بلسانيات الخطاب. وإذا كانت الملكة اللسانية عند تشومسكي تتعلق بالعناصر والبنيات اللغوية فقد أعدها "هايمس"؛ لأنها وصفت اللغة بمعزل عن حالات استعمالها في الواقع الاجتماعي بحسب حاجات الأفراد ومقاصدهم وأغراضهم، وتتداخل هذه العناصر لتكون بناء مرصوصا منسجما، كل عنصر يؤدي مهمته ويرتبط وينتظم مع غيره فتنتج وظيفة التبليغ من تأليف الأجزاء جميعها وهي صورة البنية

اللسانية التي هي موضوع الدراسة، كما أن هذه المادة قد تخضع للتطور والتحول وهذا أيضا جدير بالدراسة وهو ما يخص البنية اللسانية في ذاتها ومسالكها في عملية التبليغ وليس الأحداث التاريخية والتحولات الزمنية.

إن الباحث في هذا المجال يهدف من كل هذا إلى شيء واحد هو "الكشف عن أسرار البنية اللسانية ومجاريها داخل النص؛ سواء في زمان واحد من تطور اللسان أو أزمنة متعاقبة، ويجوز للباحث أن يتناول اللسان من جوانب أخرى في خضم تطوراته الفزيولوجية الصوتية ـ النفسانية ـ الاجتماعية ـ الجغرافية ـ التاريخية.

لقد تجاوزت الدراسات اللسانية حدود البنية اللغوية الصغرى-الجملة- إلى بنية لغوية أكبر منها في التحليل هي النص، إذ عُدّ النص الصورة الكاملة والأخيرة المتماسكة التي يتم عن طريقها التواصل بين أفراد المجموعة اللغوية وقد بشّر كل من بيوتيفي وهاريس بعلم اللغة النصي، حيث لم تعد الجملة كافية لكل مسائل الوصف اللغوي فكان من المفروض أن يتجه الوصف في الحكم على الجملة من وضعها في إطار وحدة كبرى هي النص، وقد عُدّ علم النص في رأيهم تطويراً وتوسيعاً لعلم لغة الجملة الذي شُغل به البنائيون الأمريكان منذ بلومفيلد كما شُغلت به مدرسة تشومسكي في الكفاءة اللغوية التي توصف توليدياً في إطار القدرة على توليد عدد غير متناه من الجمل، وقد استطاع هاريس بمناهجه النصية المبكرة والمبتكرة التي اعتمدها في كتابه (تحليل الخطاب) تطوير المناهج المتبعة في تحليل الجملة.

فلسانيات النص، علمٌ ناشئٌ وحقلٌ معرفي جديد تكوّن بالتدريج في السبعينيات من القرن العشرين، وبرز بديلا نقديا لنظرية الأدب الكلاسيكي التي توارت في فكر "الحَداثة" و"ما بعد الحداثة"، وراح هذا العلم الوليد يطوّر من مناهجه ومقولاته حتى غدا "أهمّ وافدٍ" على ساحة الدراسات اللسانية المعاصرة، وقد نشأ على أنقاض علوم سابقة له كـ"لسانيات الجملة" و"اللسانيات النَّسَقية" و"الأسلوبية"، ثم انطلق من معطياتها وأسس عليها مقولات جديدة، وهو قريب جدا من صنوه" تحليل الخطاب"، غير أن هذا الفرع الأخير يقوم على أساس التحليل البنيوي، أما فرع "لسانيات النص"-حتى وإن استثمر جميع النظريات اللسانية السابقة عليه-فهو يقوم في الأعم الأغلب على أساس التحليل التداولي، وأهم ملمح في لسانيات النص أنه غني متداخل الاختصاصات يشكِّل محور ارتكاز عدة علوم ويتأثر دون شك بالدوافع ووجهات النظر والمناهج والأدوات والمقولات التي تقوم عليها هذه العلوم.

وإن أغلب الباحثين : بَنَوا تعريفَهم للنّصّ ولسانيات النّص على الجملة ونحو الجملة، واتّخذوا النّصَّ مطيّةً للانتقالِ إلى الحديثِ عن ظواهر الانسجام والتّرابط بين الجمل المُنْجَزَةِ في إطارِ مقامٍ مُعيّن ، وتحدّثوا عن حدود النّصّ أي بدايته

ونهايتِه عن عنوانه واستهلاله وعلامات نهايته، وعن مكوّناتِه أي عناصره التي يتأسّس عليها كالجملة والقول المنجز والقضيّة ... أي من مكوّنات أصغر من الجملة ومكوّنات جُمليّة، ومجموعة جملٍ، ومجموعة أقوالٍ استعمَلَها المتكلّم. ويدخل النص والجُملة في إطار ثنائيّات ضدّيّة : فالجملة وحدة نظرية نظاميّة، إطارها اللّغة وتنطلق من قدرة لغويّة، أمّا النّصّ فهو وحدة إجرائية استعمالية، إطارها الكلام وتنطلق من إنجاز لغوي أو قدرة تواصلية.

ومن شروط قيام النّصّ : أنّه صياغة لغويّة متكاملةٌ مستقلّة، تتحقق بشروط :

ـ استقلال النّصّ وحدوده الفاصلة: الصّحّة النّحويّة لكلّ جملة من جمل النّصّ (أو فسادها) لا تقتضي بالضّرورة صلاح النّصّ (أو فساده) من حيثُ هو كل متكامل يقوم على :

ـ البناء: أن يتوفرا لنص على: الائتلاف والانسجام والتّرابُط والاتّساق.
ـ الهدف : يجب أن يؤدي النّصّ غاياته الإبداعية.
ـ القبول : ويختلف يحسب تجاوب المُتلقي واستعداده.
ـ الوظيفة: أن تكون جُمَل النّصّ ذاتَ وظيفةٍ تواصليّة.
ـ الإفادة : تهتم بعلاقة النص بالمتلقي.
ـ المُناسبةُ المقاميّة : أن يكون النّصّ مؤثرا ومرتبطا بأحداث معينة.
ـ التّناصّ : ارتباط النصّ بنصوص متقدّمة.

وأما في التراث العربي فقد بحث بعض علمائنا في "النص" ونظّروا له ولم يتوقفوا عند التنظير للجملة؛ فمن علمائنا الذين قدموا إسهاما علميا ناضجا (في مجال التنظير والتطبيق النصي) الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) في "نظرية النظم" (كتاب : دلائل الإعجاز)، وتبرز قيمته "النصية" في أنه جمع بين علوم كثيرة كـ"النحو" و"علم المعاني" و"علم البيان" و"التفسير" و"دلالة الألفاظ" و"المعجمية" و"المنطق ..."وألّف بين أشتاتها في تناغم عجيب واتخذ منها أدوات معرفية متضافرة على تحقيق هدف واحد هو: خدمة النص القرآني وبيان إعجازه. وقد كانت فكرة "الانسجام النصي (Cohérence textuelle) "واضحة في ذهن عبد القاهر وضوحا متميزا حتى إننا نجده يعبر عنها بقوله: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل عنها بشيء منها.."[36] وهذا يدل على أن بنية النص في تصور عبد القاهر الجرجاني تصل إلى مرتبة "النظم" الذي هو أعلى درجات" التشكيل."

ويمكن أن يُفصّلَ الموضوع بطرقٍ مختلفة منها التّفصيلُ مثلاً في كلّ قضيّة من قضايا لسانيات النصّ أو نحو النّصّ

ـ كالحديث عن التّماسك اللغويّ الذي يتحقّق خارِجيا بأدوات الرّبط اللّغويّ والنّحوي، عبر عنه إمام البلاغة عبد القاهر بالتّعليق.

ـ والحديث عن الانسجام الذي يتحقق على المستوى الدّاخليّ بين المعاني القريبة والبعيدة (أو الحقيقية والمجازية)، والصّور البلاغية والتّرابط الفكري بين فقرات النص، والتسلسل المنطقي.

ـ والحديث عن السّياق الذي يتوضَّعُ فيه النّصّ ويجري في إطارِه... .

ـ والحديث عن الإحالة التي تعدّ حركةً داخليّة أو خارجيّة تحقق وظيفة الرّبط بين عناصر النص فيما بينها، أو بين النص والخارج ... .

ـ والحديث عن قضية التّأويل، أي عن مسألة "القراءة" والقارئ والفهم التّأويل وعلاقة النّصّ بصاحبِه وبِقارئه... .

ـ والحديث عن قضايا أخرى أو أدوات أخرى هي من صميم إنتاج النّصّ كالغموض والإبهام، وعلاقة النص بالواقع... .

وقد أشار الجاحظ إلى ما يشبه هذا القول حين لمّح إلى قضية اللفظ والمعنى لكن ما يلاحظ على القدماء اعتمادهم على العامل اللغوي في تحليل الخطاب الأدبي وتذوقهم له وفق معايير بلاغية معروفة لا تتجاوز المعنى المطروق، لكن منجزات العلوم الإنسانية والتجريبية وخاصّة اللسانية فرضت نوعا آخر من التعامل مع الخطاب وفق إجراءات جديدة تعتمد على التشريح الكلّي لجسد الخطاب الذي يبدأ من أصغر وحدة وهي الصوت لينتقل إلى المعجم اللغوي والصرفي، ثمّ علاقة هذه الوحدات ببعضها البعض؛ والمتأمل للخطاب الأدبي أيّا كان نوعه شعرا أو نثرا يجده رسما بالكلمات، أي خلق لغة من لغة موجودة بالفعل، ولو نظرنا إلى النص السردي المعاصر نجده يوظّف العلوم الإنسانية الأخرى من تاريخ وفلسفة واجتماع للبحث عن الذات ومساءلة الآخر، وأصبح النص السردي يملك إمكانات، بدل الطابع الحكائي المألوف الذي كان لا يخرج عن المقامة أو الأسطورة إلى خطاب يملك سلطة فكرية مرجعية هي سلطة التغير والكشف والتأثير ومن ثمّ الخلق والتثوير والإبداع، أي أن النص السردي المعاصر أعاد النظر في القيم والمعايير والأحكام والمناهج، وخرج من تخوم جنسه الأدبي إلى موقع فكري نقدي، اخترق الكثير من القضايا والموضوعات التي كانت من صميم العلوم الإنسانية وأصبح الخطاب الشعري المعاصر يمثل مركز تصادم الأفكار والتيارات والتجارب وانتقل النص من بنيته السطحية المباشرة في نقل المعنى إلى نص قابل لجميع التأويلات والمحمولات، وأصبح النص السردي دوما في ساحة التمرد على سلطة الإيديولوجيات المتعارف عليها، وتسلح بهذه المعايير والنظريات الجديدة المتولدة من الزخم المعرفي الذي أنتجه العصر الراهن، واقتحم تلك الأبراج التي كانت متعالية وبمنجاة من أسئلة الحداثة وأصبح النص السردي يتساءل حول المواقف المصيرية من الكون والزمان ومعضلات الوجود، وأضاء الكثير من الجوانب الكونية والإنسانية، ودخل النص في نقد تصويري للوضع الراهن، ومن هنا بدأ يتداخل المبدع والمتلقي، وأصبح

متنه يحمل طابع الرؤيا التي توحد الإنسان بالكون، وبدأ مشروعه في إعادة قراءة الماضي وإسقاط الحاضر على الماضي، وتحوّل النص إلى حيّز للتفجرات وملتقى مسارات وأنهار جوفية من دلالات المتداخلة وبلغ الجرف اللغوي والاشتقاق وتقليب الأصول مبلغا متزامنا مع تقليب، الأحوال في العالم العربي، حيث اختلطت المواقف السياسية بالفنية، وتحوّل التراث بحمولته الثقافية والمعرفية والتاريخية بالأنا، وأصبح الأنا يقابل مفهوم الآخر بما يملك من حضارة، وثقافة (الأنا والآخر) هي محل الصراع في الخطاب العربي المعاصر.

وقد عملت وسائل الاتصال السريعة على هجرة النصوص وتلاقحها، كما شحنت الرموز الأسطورية بدلالات معاصرة مفارقة لدلالاتها القديمة، وتحول النص الأدبي عموما إلى وسيلة من وسائل بناء العالم بالتصور المبدع وبالبعد عن المباشرة السياسية التي أعطته سلطة جمالية تذوقية، وإذا بحثنا عن آليات تحليل الخطاب الشعري فقد نجده مجسدا في بعض الدوال المتنوعة كالدال الإيقاع بتفريعاته والدال المعجمي، والدال الصوري، وقد تفاعلت هذه الدوال جميعها في بناء نص شعري له ما يميزه، حيث عرف النص بانزياحاته الأسلوبية الفكرية، وظهر مصطلح التناص أو التداخل النصي، وأصبح النص حوارا بين كتابات متعدّدة.

أما النص السردي فطريقة تحليله تنبع من مكوناته وخصائصه، يقول تودوروف "يبدو أن اتفاقا عامّا قد تمّ في التحليل السردي للوقوف على ثلاثة مقاييس: الزمن والرؤية والطريقة". وإذا بحثنا عن الأنماط السردية في تراثنا العربي نجد النموذج الحكائي المعروف في ألف ليلة وليلة، أو النمط القصصي في القرآن الكريم، أو ما كتبه الجاحظ في كتابه البخلاء أو مقامات بديع الزمان الهمذاني.. حدثنا عيسى بن هشام قال:.....

لكن هذه الأعمال يغلب عليها الطابع الحكائي الذي يسير في خط تتابعي مستقيم أساسه التدرج الزمني، أما الرواية أو القصة بمفهومها الحديث فلم يألفها الأدب العربي إلاّ في العصر الحديث إثر احتكاك الشرق بالغرب وأوّل رواية ظهرت هي رواية (زينب) لمحمد حسين هيكل، ثمّ تلتها مجموعة الروايات منها (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم ثم بعد ذلك بحقبة زمنية معينة نجد (الحي اللاتيني) لسهيل إدريس.

وكانت هذه الروايات أقرب إلى السيرة الذاتية أو تكاد تكون أشبه بتقرير لكن الرواية الفنية الناضجة ظهرت مع رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح وهي الرواية الناضجة فنيا، سواء من حيث البناء الفني أو تقنيات السرد والمتأمل لما ورد في هذه الرواية يلمس قدرة صاحبها على تمرّسه في فن الكتابة وتمكنه من تقنيات الوصف وشدّ انتباه القارئ، من الصفحات الأولى للنص، ومهارته في استخدام الحواس من بصر وشّم ولمس، كما كانت له القدرة

في النفاذ إلى أعماق الأشياء وولوجه في لب القضية وجوهرها، فهو يعالج مشكل الصراع بين الشرق والغرب مثلما عالجته الروايات السابقة، لكن ما يلاحظ على الطيب صالح رؤيته النقدية الكاشفة لحقائق الأشياء، إذ عبّر عن اغتراب الإنسان العربي والانفصام الموجود في شخصيته من خلال شخصيته المحورية مصطفى سعيد حين بقي في بيت ينقسم إلى اثنين نصفه شرقي والنصف الآخر غربي، أو من خلال النهاية المجسدة لشخصية الراوي، حين أراد العبور والسباحة من الضفة الجنوبية لواد النيل متجها إلى شماله، فوصل إلى نقطة الوسط حيث شعر بالتعب والعياء، فلا هو استطاع العودة إلى جنوبه ولا هو استطاع أن يعبر إلى الشمال وانتهت الرواية بالنجدة، النجدة. على هذه الصيحة الفزعة ينغلق الموسم والبطل الراوي موشك على الغرق في النهر، نهر التاريخ وهو في منتصف الطريق بين ضفة الجنوب وضفة الشمال شاطئ القدم وشاطئ الحداثة، ساحل الحضارة العربية وساحل التمدن الأوربي فلا يستطيع المضي إلى الأمام ولا يستطيع العودة إلى الوراء.

والمتأمّل لما ورد في الرواية، يلمس البنية العميقة للنص كما يلمس سلطة السرد الحكائي على قارئه فبمجرّد الأسطر الأولى يذهب بك الكاتب بعيدا إلى عوالم شتى تذهب بخيالك كما تذهب بعقلك. والخطاب الروائي يختلف عن النمط الحكائي ،فالحكاية تسير في خط مستقيم بينما الخطاب الروائي يتلاعب بالزمان والمكان وزمن السرد.....

فالرواية عادة تبدأ من حيث تنتهي الحكاية وإجراءاتها النقدية في التحليل مستمدّة من بنيتها وتكوينها، فالأنماط الزمنية للسرد في الرواية متعددة الأشكال والألوان، فنجد السرد اللاحق والسرد السابق والسرد المتزامن، مثلما نجد السرد المتداخل، كما يلجأ الكاتب إلى تسريع زمن السرد بالاعتماد على الإيجاز والحذف والخلاصة، وأحيانا يجد نفسه في حاجة إلى تبطيء زمن السرد بالوصف والحوار، ولكل كاتب روائي تقنياته الخاصة في استخدام هذه التقنيات المتعارف عليها في الخطاب الروائي، أما التحليل فلا يخرج عن هذه المناهج النقدية الحديثة المتمثلة في البنيوية والتفكيكية والسميائية، ولكل كاتب روائي آلياته الخاصة في بناء الخطاب الروائي، سواء من حيث تواتر الشخصيات ومراتبها السردية في النص، أو في بنائها الداخلي ووظائفها السردية، أو من حيث علاقة السارد بشخصياته أو في اعتماده على الأشكال السردية المتّبعة، حيث نجد السرد بضمير الغائب أو السرد بضمير المتكلم أو ضمير المخاطب، وكذلك في طريقة التعامل مع الضمائر كما يبقى المكان الشغل الشاغل للرواية المعاصرة التي نقلت المكان من مجرّد حيّز جامد إلى المكان الذي يسكن الإنسان، ويمتزج بالأفكار، ويترك حفرياته على الشخصية في سلوكها وثقافتها، ويبقي الخطاب الروائي المعاصر مركز استقطاب الجميع نظرا لشموليته وقدرته على الكشف والاستكشاف في

معرفة الذات والآخر ومحاورتها، كما يعتبر الخطاب الروائي مرتعا خصبا لتلاقح الذوات وحوار الحضارات وتفاعل الخطابات، ويبقى الخطاب الروائي الشغل الشاغل للكثير من الأدباء والنقاد والكتاب تبعا لتنوع المقاربات المتأثرة بمقولات المناهج الجديدة....

وتفطّن الأوائل إلى السياق وسمّوه النظم كما يدعوه عبد القاهر الجرجاني فاللغة لها نظامها في تركيب الجملة على أساس الترتيب النحوي الذي يربط بين المبتدأ والخبر الفعل والفاعل والمفعول به، ويصّر نظام اللغة على هذا المسار و" التداخل النصي أو الحوارية لدى باختين سمة الفن الرفيع"، ونتيجة لهذا أُعتبر باختين الخطاب السردي أو الرواية بأنها الفن الأعلى لأنها تتميز بالحوارية أكثر من غيرها، لذا تعتبر جل الخطابات قائمة على التداخل والتفاعل بين أصوات وأساليب وخطابات تعبّر عن التفاعل والتداخل والتعدد داخل العمل الفني الواحد.

والمتفحّص للإجراءات النقدية الجديدة في تحليل النص يلمس مصطلح "التداخل النصي" أو ما يسمى "التناص" الذي يمثّل آلية تكّون الرؤية باستدخال عناصر العالم إستدخالا بنائيا إنتاجيا توليديا ينتج بفضلها تصورات ودلالات جديدة مفارقة لدلالاتها القديمة، فإذا كان التاريخ يحضر في الكثير من النصوص الشعرية الجديدة فإنّه يتّحول إلى صورة ونقوش ورؤى تتقابل وتتجاوب، وبالتالي نجد في النصوص المعاصرة توظيفا للتراث بكلّ ما يحمل في بناء تصوّر لحاضر جديد أي رؤية جديدة، لولادة جديدة، وهذا ما يؤكد أن النص لا يوجد إلا مع نص آخر معه أو ضده، فالنص لا ينطلق من العدم وإنما من نصوص أخرى امتزجت كيميائيا لتصنع معنى جديدا، وهذا ما يجعل المهتم بتحليل النصوص يرصد المنابع ليحدّد التفاعلات المنتجة للدلالة الجديدة، ومن ثمّ وصف البنيات الشعرية وتحليلها وعملها في بناء الدلالة النصيّة، وما تملكه القصيدة وتظهره من صلة بمراجعها يعتبر جزءاً لا ينفصل عن بنيتها وحركتها؛ إن الآليات المعتمدة في تحليل الخطاب الآن تستمد إجراءاتها العلمية بما أفرزته العلوم الحديثة بمختلف أشكالها وأنواعها وأصبحت تتعامل مع النص على أنه جسد حي تتحسس نبضه في الباطن والظاهر، وترهف السمع لما يوحيه في صوته وصمته؛ فالمرحلة الأولى وصفية ظاهراتيّه تتقصّى تشكّلات النص وتتبّع الإشارات اللغوية والظواهر الأسلوبية.

أما المرحلة الثانية فتستند في التأويل إلى العلاقة بين الدال والمدلول، وتتوخّى العثور على المنجز الإبداعي بمعرفة جديدة تتيح اكتشاف دلالة الأشياء والكون عبر النص وخلاله، فالبنية اللغوية والتعبيرية للقصيدة الحديثة تتسم بالاحتمالية والتعدد، وإذا كان النص الإبداعي بهذه الاحتمالية لا يقدر النص الواصف أو اللغة النقدية المحيطة أن تدّعي لنفسها نهائية النتائج، فالنص الشعري المعاصر بفعل الحمولات المعرفية المكثفة جعل من نفسه بناءً لغوياً معقّداً يسمح للنصوص الأخرى والأصوات بالنفاذ إلى الداخل، كما ينعدم المدخل والمنتهى،

وتنزل هكذا كسيل مفاجئ متحررة من كل شيء، وتشحن فيها الإشارات بدلالات مشحونة بالمدلولات التي لا تستطيع القبض عليها، فتحول النص إلى جسد هلامي تستطيع تشكيله باتجاهات عدةّ، كما تفرض على القارئ جهدا لإعادة الأجزاء المبعثرة وإعادة ترتيبها وبهذا الجهد تجد القارئ نفسه قد أحيا النص مرة ثانية.

فالنص يعمل على تفجير اللغة بكل ما تحمل من دلالة مرجعية وثقافية وحضارية ويكون منها رموزا لأشياء غائبة وحاضرة تقبع داخل النص، وإذا أردنا بعث التراث العربي وإحيائه وابتكار طريقة جديدة في التعامل معه، فلا يكون في نسخه وإعادته كما هو، وإنما ببعثه في ثوب جديد نلمسه في التناص حيث يتلاقح نص قديم مع نص جديد ويبقى الماضي متزامنا مع الحاضر في اتجاه المستقبل.

ولذا فالوسائل الكفيلة بتشريح النص تتمثل في جميع الإجراءات المعرفية التي تساعدنا في استقراء النص وتتبع جزئياته ونستعين في هذا بكل المعدات المعرفية التي أنتجتها العلوم الحديثة، إضافة إلى معرفتنا الأخرى من نحو وصرف وبلاغة ولسانيات ومعرفة الأصوات، إضافة إلى الإجراءات النقدية الأخرى وما أفرزته الأسلوبية وعلوم اللسان. فالخطاب الأدبي هو جسد حي، لابد أن نرهف السمع وندقق النظر في شكله ومظهره وأعماقه ونتحسس قلبه النابض ونفسر إشاراته ورموزه، فنقابل بين دلالاته ونستقرئ نسيجه النصُي ونتتبع الحركة والصوت والإيقاع واللفظ والمفردة وقوة المدّ والدفع، وصعود النص وهبوطه المفاجئ ثم البحث عن قلب النص الجاذب للدلالات، ثم البحث عن استحضار الأزمنة وتشابك الأحداث، ثم نقسّم النص إلى مقاطع تبعا للنواة الدلالية الجاذبة للكل، ونتتبع المحاور ثم نمعن النظر في النسيج البنائي، والامتداد والتلاحم والانفتاح والانغلاق، والبحث عن الدلالة الاحتمالية الهاربة.

ـ وبهذه الطريقة نتمكّن من معرفة أنظمة النص وولادته الفنّية، ولحظة الإصابة المباغتة للجرعة الفنية المثيرة التي يتقبلها المتلقّي ويتفاعل معها ويتأثر ويؤثر ومن هنا نلمس القراءة المغذيّة المنتجة التي تعبّر عن تلاقح النصوص وهجرتها وتقاطعها وبعثها من جديد وهكذا هي العملية الإبداعية.

فالنص الأدبي هو أشبه بجسد عضوي له طابعه وشكله ووظيفته وقوته ومكامن الضعف فيه، كما له مناعة خاصة يستجيب للعلاج بأدوية لا تصلح مع جسد آخر، مثله مثل النص الأدبي، فكّل نص يمتلك مفاتيح لا نجدها في غيرها من النصوص الأخرى نظرا للتحولات التي تطرأ على النص في أبعاده الزمانية والمكانية والمادية والمعنوية حيث تتحوّل المقاطع البنائية إلى مؤّشرات رمزية تومئ بالدلالة وتطرح له رؤية وحلا.

هنا يتحول المتلقي إلى صانع للإشارة وقارئ لها ومشارك في معناها بعد أن بحث عن ما وراء هذه الكلمة خلف الستائر الضبابية.

الهوامش:

1 - ينظر : ابن منظور– لسان العرب– ت– يوسف خياط–مج6 – دار الجيل بيروت– 1988، مادة : نص.

2 . الزبيدي: – محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضي – تاج العروس – مادة نصص– دار الجيل، دار لسان العرب، بيروت .1988

3– المصدر نفسه.

4 – ابن منظور: لسان العرب ،مادة نص

5 – صلاح رزق: أدبية النص ،دار الثقافة العربية القاهرة،ط1989م. ص .174

6 – البيان والتبيين– إعداد ميشال عاصي– منشورات مكتبة سمير –بيروت– ص.27

7- Voir le petit Larousse -éditions 84 –paris-France. Voir aussi dictionnaire du francais-etymologie-grammaire- prononciation- hachette-imprime en France-1995- voir aussi Paul robert- petit robert1-edites par les dictionnaires le robert- paris France. Voir aussi Larousse encyclopédique- nouvelle edition-2000.-paris

8 . عبد الملك مرتاض: الكتابة من موقع العدم ،دار الغرب للنشر والتوزيع، ص 221.

9 . جوليا كريستيفا، ترجمة عبد الملك مرتاض ، الكتابة من موقع العدم ، ص 237.

10 . نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، تحليل الخطاب الشعري والسردي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1997، ص.68

11 . نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب ص 70.

12. صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، ص33–34.

13. خليل الموسى، النص لغة واصطلاحا، جريدة الأسبوع الأدبي، عدد 823،/ 2000

14 . عبد الوهاب خلاّف، علم أصول الفقه، الزهراء للنشر والتوزيع، ط1 ص 144–150

15 . عبد الوهاب خلاّف، علم أصول الفقه. ص144

16 . ابن منظور– لسان العرب1988. مادة نصص.

17– الزبيدي: تاج العروس

18– نظرية النص–ترجمة وتعليق محمد خير البقاعي –مجلة العرب والفكر العالمي– العدد الثالث صيف– 1988.

19–ROLAND BARTHES. ILBID. P . 997/998.

20– ROLAND BARTHES. ILBID. P . 997/998.

21 . عدنان بن ذريل، النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، ص 57.

22. المرجع نفسه، ص 60.

23 . Julia kristeva .in ibid, p 997/998

24 . جوليا كريستفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب ص28.

25 . جوليا كريستفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، ص21

26 . المرجع نفسه، ص13.

27 . عبد الملك مرتاض : الكتابة من موقع العدم، دار الغرب للنشر والتوزيع، ص 238.

28. أحمد حساني : مباحث في اللسانيات ، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر ط 1994

29. عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، طبعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الرغاية الجزائر 1991، ص 105.

30. عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة مطبعة المدني، القاهرة، 1991، ص 5.

31 . عبد الرحمن الحاج صالح:بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية الجزائر،2007، ص291/290.

32. سبويه : الكتاب، طبعة، بولاق 1317هـ ج1/ص 262.

33 . يراجع : بحوث ودراسات في علوم اللسان، عبد الرحمن الحاج صالح، ص155/154.

34 . عبد السلام المسدي : اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، ط 1986، ص 120.

35 . عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج3، ص 184.

36. عبد القاهر الجرجلني: دلائل الإعجاز، ص94.